

الحراك الاجتماعي في الجزائر :

بعد أن تعرضنا للآفاق النظرية للحراك الاجتماعي و آراء العديد من المنظرين وتطبيقاتهم في مجتمعاتهم الخاصة بهم والنتائج العامة التي وصلوا إليها في معالجتهم لمسائل الحراك الاجتماعي الداخلي الأفقي والعمودي في المجتمعات الزراعية والصناعية سوف يتم التطرق إلى الحراك الاجتماعي في المجتمع الجزائري هذا المجتمع الذي ينتمي إلى المجتمعات الزراعية إلى حد كبير - هل يتسم بنفس الخصائص وهل عرف نفس الآثار العامة بالحراك ونفس اللاليات أم انه له خصوصيات معينة ؟
فيا ترى من أين نبدا في دراسة الأنموذج الجزائري من زاوية العائلة ام الملكية ام التعليم (الجهاز التعليمي ككل)

وسنحاول في هذه الدراسة أن نتعرض للحراك التاريخي والحراك الجغرافي المهني في الفئات الاجتماعية الجزائرية

أ) عرض تاريخي لحراك الفئات الاجتماعية :

أولاً: المرحلة القروسطية يصعب التحكم في هذه المرحلة وتوضيح سماتها السوسيولوجية لان الوثائق والمصادر التاريخية ضحلة لا تكفي للمرغوب كما أن الآراء تتضارب حول هذه المرحلة ولم تصل إلى اتفاق موحد حولها هذا إذا لم يطرح المشكل المنهجي أيضا فمن المميزات التي ميزت المجتمع الجزائري في هذه المرحلة حبه للحرية و الاستقلال ورفضهم للجور والظلم والتميز ولم يمكن تعاقب الغزاة المحتلين على أرضهم من إخضاعهم واستيعابهم¹.

وبالرغم من استعصاء الجزائريين على الغزاة وتميزهم كأفراد بخصائص نفسية ودينية عالية و توفرهم على كثير من الخصائص والفضائل والاستعدادات الفطرية الطيبة فانهم لم يمارسوها بشكل إيجابي بحيث تتحول إلى دواعي للتجمع والى دلائل للوعي المولد للمؤسسات والأنظمة الاجتماعية ولم تؤهلهم إلى بلورة وعي سياسي وطني للدفاع عن وطنهم و اكتفائهم بانتفاضة قبائل مقدامة وشخصيات كبيرة وهو ما

¹ عبد العزيز رأسمال ، المرجع السابق نفسه، ص56.

قد يفسر ان امتنا أنجبت أبطال حرب وتحرير اكثر من أبطال بناء وحضارة وان التحديات كانت دائما تبدو لنا اكثر جاذبية في الدعوة الى الانخراط في أعمال مشاريع تتطلب الجهد والنفس الطويل اعتمادا على المثابرة و الانضباط والانسجام¹.

لقد اكتفى الجزائريون خلال قرون من الزمان بنوع من الحكم الذاتي على مستوى العرش و الدشرة القائم على أساس بعض الفضائل الأخلاقية كالجماعة والتوزيع وفضلوا في بناء مجتمع كلي وتحقيق الوثبة النوعية التي تنقلهم من الفردي إلى الجماعي ومن البداوة و الترحال الى الحضارة والمدينة ومن القبيلة إلى الأمة ولعل السبب في هذا الفشل هو تلك الممارسات العنصرية والتمييز الذي مارسه الدول الاستعمارية التي أقيمت على ارض الجزائر والتي عملت على تهمة إش هانة الجزائري ونهب خيراته بحيث لم تبق في مخيلته سوى تلك النظرية السلبية للدولة والتي تحولت مع الزمن الى عدااء غريزي وكره مزمن الى الانضباط والقانون و أنتجت حساسية مفرطة عند الجزائريين واستعدادا للثورة على كل مظلمة وجور وتحولت إلى قيمة ثابتة وخاصة نفسية تطلبهم وبمجيء الإسلام وهو الحدث الثقافي والروحي والاجتماعي الأهم في تاريخ الجزائر والذي اكتسبت معه مقومات هويتها من عقيدة إسلامية ولغة عربية وطبع مميز من العادات والتقاليد انتقل الجزائريون إلى وضعية جديدة اكثر طمأنينة و أمن فغاب التدخل الأجنبي من عالم المتوسط وزال التشتت والتمزق الذي خلفه العهد البيزنطي وما قبله فانسجمت الوحدة التاريخية والجغرافية مع الوحدة الدينية والسياسية ولكن سرعان ما عاودت النزعة الانفصالية والاستقلالية إلى الظهور عبر الزعامات المحلية والإقليمية وان كانت في إطار الإسلام ومن ثم بقي الجزائريون معزولين عن النقاشات في منطقة المتوسط والتي أنتجت دولا حديثة ومتحضرة².

¹ عبد العزيز رأسمال ، المرجع السابق نفسه،، ص57.

² محمد بوضياف ، الثقافة السياسية في الجزائر ، مجلة العلوم الإنسانية ، بسكرة ، العدد 11 ، ماي 2007 ، ص113 114.

وما يهمننا من خلال هذا الاستقراء التاريخي الملخص للتطور الاجتماعي للمجتمع الجزائري هو هل شهدت بعض الفئات الاجتماعية حراكا تصاعديا او تنازليا مهما ؟ هل كانت حظوظها متساوية ؟

تختلف الحظوظ الاجتماعية طبقا لعلاقات السيادة التي تماسها المدينة على الريف فإذا أخذت المدينة فالفئة الاجتماعية المسيطرة هي فئة التجار الكبار فالى جانب ثرائهم يشكلون أرستقراطية اقتصادية وسياسية وثقافية حيث أن التاجر الكبير هو شخصية سياسية مهمة لقوته المالية ويشكل محورا ثقافيا معتبرا .

كما أن الريف يضغط على المدينة باستمرار مما جعل حكام (تیهرت) المدينة الإسلامية التي قامت ما بين القرن 9 و 10 ميلادي في الجزائر يحثارون في كيفية التخفيف من حدة هذه الهجرة هذا ما يراه الجحاني ويضيف: " لا نعتقد أن حكام تیهرت استفادوا من هذه الاقليات في التخفيف من ضغط الريف على المدينة "وبلغت هذه الفئة الجديدة درجة كبيرة من النفوذ والقوة والثروة ولا بد من التنويه أيضا ان الطابع الديني هو الذي يميز المدن من الناحية الثقافية فهو الذي يؤطر كل الخلافات السياسية وأزمات الحكومات والتناقضات التي تنشأ فيها لكن يبدو ان القبائل البدوية والريفية كانت مستقلة ثقافيا عن المدن ،بجانب هذه الظروف الاجتماعية والثقافية كانت هناك عوامل أخرى طبيعية وسياسية خارجية حددت البنية الاجتماعية الداخلية يقول الأستاذ جاك بيرك: "في القرن 14 ميلادي ظهر مرض الطاعون في 1348 الذي انتشر في كل العالم آنذاك وهذا القرن كان سيئا بالنسبة للحضارة المتوسطة فهجمات الهالبيين خنقت و افسد نظاما ريفيا كان موجودا يعتمد على تربية الماشية وعلى تقسيم واضح بين الريفيين والمرتادين فإذا كانت قبائلهم المعتمدة على الجمال قد انتشرت فإنها أفقدت التوازن الموجود في القرى والمناطق الريفية"¹ .

بعد هذه التحولات التي أدى فيها العامل الخارجي دورا حاسما في إعادة تشكيل البنيات الاجتماعية داخل المدينة فقامت سلطة مركزية في المدن وقامت في المراكز

¹ عبد العزيز رأسمال ، المرجع السابق نفسه،، ص 58.

الحضرية سلطنات دينية ووراثية اعتمدت على القبائل المعفاة من الضرائب في ترسيخ نفوذها .

كذلك قامت سلطة محلية أو سلطة من المستخدمين في المناطق الوسطى التي تسكنها قبائل مقهورة تجبى منها الضرائب ويمارس عليها الاستغلال كما ان هناك قبائل تنتفض فوضويا و تقهر السلطة المركزية في بعض الأحيان إلى جانب هذا كله كان الشعب الصغير في المدن يقوم بهذه الانتفاضات حينما تتأزم أوضاعه الاجتماعية ويعاني من القهر والحرمان وتسلط بعض الحكام و كبار التجار الجشعين الذين يحتلون مكانة معتبرة في الدولة .

ثانيا : المرحل العثمانية :

كان مجتمع المدينة مقسما الى طبقة سائدة من الأتراك يمتلكون أراضى هامة وطبقة من الأهالي لا تتعدى المستوى الضروري للمحافظة على قوة العمل عدم المساواة الاقتصادية و لم يتوقف عند هذا الحد بل أدى الى علاقات استغلال جديدة بين الحاكمين والمحكومين لذلك قامت العديد من الارستقراطيات التي استفادت من علاقات الهيمنة وبقيت الفئات الاجتماعية في الريف معزولة وبذلك ازدادت الهجرة الريفية كلما انتقالا من الشرق إلى الغرب ، وتتمثل باقي الفئات الاجتماعية في الفئات الوسطى التي كانت تستعملها الدولة التركية الإقطاعية في القضاء على الإقطاعية المحلية ، وتتشكل غالبا من قبائل المخزن ، كما أدت سياسة الاستقطاع الضريبي إلى ظهور فئة اجتماعية جديدة في القبيلة تتفاوت في مستوى معيشتها مع الفئات الأخرى ، كذلك لا ينبغي إغفال ما للسلالة العرقية من أهمية في التركيب الاجتماعي وفي التركيب العرقي إلا أن هذه البرجوازيات العرقية لم تتمكن من الاندماج في المجتمع المحلي وارتبطت ارتباطا وثيقا بالسلطة السياسية في احسن الحالات تتحصل على امتيازات فيحصل لها حراك تصاعدي طارئ وسريع لم تكن تحلم به لكن في أسوء

الحالات تصادر ملكياتها وبذلك يتشكل لديها حراك تنازلي مفاجئ كما لا يفوتنا ان نذكر الصراعات والتناقضات التي تحدث بينها¹.

وتتشكل فئة التجار من المزابيين و يعيشون من منتوج تجارتهم ، انهم الأكثر ثراء ولكي يحافظو على مصالحهم فانهم يزوجون بناتهم من الأتراك أما الكراغلة فانهم لم يتحصلوا على مساواة كاملة مع الأتراك أما الفئة الأكثر سحقا فتمثل في الزوج والأسرى المسيحيين اما القبائل فهم يعملون باس للحصول على قوتهم .

ثالثا المرحلة الاستعمارية :

نحدد تحت هذه المرحلة ثلاث فئات اجتماعية تلك التي بقيت ثابتة في مكانتها الاجتماعية و تلك التي تحركت تصاعديا و بالمقابل تلك التي تحركت تنازليا (أ) **الثبات الاجتماعي:** إن فئة الخماسة هي الأكثر تعرضا للثبات الاجتماعي من غيرها من الفئات وذلك نتيجة للظروف القهرية التي مارسها الاستعمار عليها وتسلط الإقطاعية من الريف الجزائري كما ان هذه الفئة أكثر خضوعا للاستغلال السياسي والاقتصادي من قبل البرجوازية العقارية وتبعيتها السياسية مرتبطة بنوع العقد الذي ينظم علاقتها مع المالك فتشكل هجرتها الى المدينة والى الخارج أشكال النضال المباشر لذلك فهذه التبعية هي أساس الثبات الاجتماعي الذي تعرفه عبر الأجيال المتعاقبة .

(ب) **الحراك التنازلي :** أدت التشريعات القانونية دورا حاسما في الحراك التنازلي - الاقتصادي خاصة- بالنسبة للأهالي الجزائريين فقد صرح (بوجو) بان ملكية الفلاحين تنتزع بالمحراث والسيف ولكنه اغفل قوة القانون الذي يبرر هذا الانتزاع وهذه التشريعات تحمل كل سمات الملكية العقارية لذلك كانت هناك ثلاث أهداف لهذا القانون

¹ عبد العزيز رأسمال ، المرجع السابق نفسه،، ص60.

أولها : إدخال الملكية الخاصة لسكان لم يحضروا أنفسهم لها ، بل ينفرون منها

الثاني :منح المعمرين أقصى حد من الأراضي

ثالثا: فصل العرب عن روابطهم الطبيعية مع الأرض ، اي القضاء على العلاقات

العشائرية القوية ، والقضاء على خطر التمرد

بعد انتهاء العمليات الأولى من تنفيذ هذه القوانين وبسبب المشاكل والعراقيل التي

وجدتها في مجال التطبيق نفذ صبر المعمرين فبدأت آليات الصفقات التجارية تحتد ،

واخذ انتزاع الأراضي أشكالا خفية ومستترة بالحيل ، ومعلنة بالقهر .

هؤلاء المزارعين ازدادوا فقرا وخاصة بعد انتزاع أراضيهم في 1871 التي شارك

فيها ثلثا السكان ، أما الطليعة فقد بقيت قوية في ريائها ضعيفة في تجربتها الى جانب

الزارعين المسحوقين فان البرجوازية الريفية الصغيرة عرفت نفس الظروف وخاصة

الشريحة التي تكدح من جراء انتزاع أراضيها فلم يعد بوسع الأبناء ان يكسبو عيشهم

من أراضي الآباء ، وأدت أزمة 1929 دورا في انتزاع ملكية الفلاحين الفقراء وإفقار

المدن وذلك لمصلحة الأوربيين الأثرياء والمرابيين الجزائريين والتجار وكانت هذه

الأزمة سببا في انحطاط الحرفيين وفقرهم¹

ج) الحراك التصاعدي : ان درجات الحراك التصاعدي تختلف في أهميتها ، فإذا أخذنا

بعين الاعتبار تلك الحركات الثانوية التي جعلت الخماس السابق عاملا في القطاع

الصناعي بالمدينة فإننا نصل الى ان الطبقة العاملة قد تم إعدادها في مرحلة ظهور

العامل الموسمي او المؤقت الذي يحتفظ بعلاقة ملموسة مع الملكية الصغيرة ، أما اذا

انصب الاهتمام على الحركات التصاعدية الأساسية فان الفئة العسكرية الفرنسية هي

التي حظيت بامتيازات هائلة .

بعد هذه الفئة تظهر فئة هامة حصلت على امتيازات اقتصادية وسياسية معتبرة

هذه الفئة هي فئة الباشاغاوات الذين استفادوا من حراك تصاعدي هام بفعل علاقتهم

مع السلطة الفرنسية ومع العسكريين لذلك كان الجاه والاعتبار الاجتماعي المثابة

¹ عبد العزيز رأسمال ، المرجع السابق نفسه،، ص 63.

المكانة الرسمية أمام السلطات الفرنسية، وعلى العموم فإن البرجوازية العقارية هي المستفيدة الرسمية بعد الحرب العالمية الأولى من القحط الذي أصاب الجزائر فزاد ثراؤها وزاد ثراء التجار كذلك بفعل المضاربة والربا والقوانين العقارية وكانت هذه البرجوازية الأوروبية خاصة مهيمنة اقتصاديا وسياسيا وعقائديا، وتمارس سيطرتها عن طريق الصحف ووسائل الإعلام والجهاز التعليمي

هذه بصفة عامة الحالة المعنوية والاجتماعية التي وصل بها وعليها البناء الاجتماعي المتحرك الجزائري إلى القرن العشرين وما هو رسم التركيبة الذهنية التي خلفتها التفاعلات والأحداث التاريخية إلى ان جاءت ثورة نوفمبر 1954 وهي من دون شك اكبر عملية جماعية واحسن فعل مشترك قام به الجزائريون في الوقت نفسه وفي كامل التراب الوطني وبصناعة تلك الثورة صنع الشعب الجزائري في الحقيقة ذاته ولذلك أصبحت الثورة تمثل له اليوم اكبر مرجع له بعد الفتح الإسلامي

رابعا: مرحلة الثورة التحريرية: ان حدث الثورة التحريرية هام جدا على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي وقد ادخل تغييرات كبيرة في البنية الاجتماعية طبقا للسياسة القهرية التي مارسها الاستعمار، وكذلك يظهر مقدار قرب او بعد كل فئة اجتماعية من الجهاز التربوي، وبذلك يتحدد موقفها من الثورة التحريرية، ثم النتائج السياسية المترتبة عن الثورة المسلحة.

لكن قبل ذلك لابد من استعراض الصعيد الاقتصادي من خلال برنامج قسنطينة: البرنامج الذي يدعي بأنه سيمنح ترقية اقتصادية واجتماعية للجزائريين فما هي النتائج التي تحصل عليها؟

أ) على الصعيد الاقتصادي كان مشروع قسنطينة في 1960 نتيجة للتوتر الاجتماعي الذي سببته أزمة الرأسمالية في الجزائر وصعود حركة التحرير الوطني، وقد اتجه ثلاث اتجاهات في السياسة الاقتصادية التي تبناها: السياسة الزراعية، السياسة الصناعية، السياسية البترولية¹.

¹ عبد العزيز راسمال، المرجع السابق نفسه، ص 133.

أما فيما يخص السياسة الزراعية والتي فشل فيها فشلا ذريعا أقر المشروع بشراء الأراضي بالتراضي مع كبار المعمرين ، ونزع الملكية إذا لم تستثمر بالشكل المطلوب ، وتوزيعها على الفلاحين الجزائريين غير المالكين وكان الهدف المعلن والخفي للسلطة الاستعمارية هو إنشاء برجوازية صغيرة تصبح بمثابة العصا التي يرتكز عليها في ترسيخ الاحتلال الفرنسي السبب الذي جعل جبهة التحرير تقف سياسيا ضد هذا الأجراء ، فأخفقت السياسة الزراعية إداريا وسياسيا نتيجة لرفض الفلاحين الفقراء لهذا الأجراء .

أما فيما يخص السياسة التصنيعية فقد فشلت أيضا حيث ان نظرية المشروع أكدت على زيادة التشغيل بالمدن من اجل استيعاب البطالين ، فهي تحاول رفع هذه النسبة بحثا عن الاستقرار الاجتماعي ، كان قطاع البناء والأشغال العمومية من ناحية التشغيل يشكل القطاع المسيطر في هذه المرحلة وذلك لتلبية حاجات الفئة الأوربية في الجزائر أما لتلبية حاجات الجزائريين فانه يبدو قاصرا ومما ادى الى فشل هذه السياسة أيضا خوف المستثمرين الأجانب من فقدان استثماراتهم للغموض السياسي الأمر الذي جعلهم يعدلون عن الاستثمار .

أما فيما يتعلق بالسياسة النفطية ، فكانت أكثر نجاحا لأنها استبعدت الرأسمال الفرنسي و الأجنبي على العموم ، وكذلك وضعت الشركات الاحتكارية الكبرى تحت تصرف وإشراف الحكومة الفرنسية . وبذلك ظهر نوع من العقلانية في هذه السياسة النفطية ، مع أنها كانت تخدم في الدرجة الأولى الوطن الأم على العموم فإن السياسة الاقتصادية التي تمخضت عن مشروع قسنطينة كانت بمثابة إجابة سياسية عن مشروع اقتصادي.

ب) على الصعيد الاجتماعي : يشكل الفلاحون الفئة الأكثر تحمسا للنضال ذلك طبقا لشروط هذه الفئة المتدنية ولأنها أكثر إحساسا بأهمية الترقية الاجتماعية الفعلية وأكثر تعرضا لعدم المساواة الاجتماعية مع المجموعة الحضرية لذلك يقول فانون (f:fanon) " إنه من الواضح في البلدان المستعمرة أن الفلاحين ثوريون ، فليس لديهم ما يضيعونه بل يربحون كل شيء فالفلاح المتأخر طبقيا والجوعان والمستغل

والذي يكتشف أن بسرعة أن العنف وحده هو المفيد ليست لديه أية وسيلة أخرى للتفاهم "

وبما أن المستعمر الفرنسي مارس سياسة تكديح واسعة لهذه الفئة فإنها كانت تشكل دائما الفئة الأكثر انتفاضا على المستعمر ، وهي تجمع ما تحت البروليتاريا التي تسكن في الأحياء القصديرية بالمدن الكبرى ، وضمت إليها فئة الحرفيين التي تشكل القاعدة الهامة في النضال الحضري بعدما رمي بها من سوق العمل وقضت عليها تجارة الجملة قضاء مبرما فهي فئة ما تحت البروليتاريا تشكل رأس الرمح القاطع كما يؤكد فانون

أما موقف البرجوازية الزراعية التي كان الاستعمار يريد استمالتها الى جانبه فقد كان مؤيد الحركة التحرير ، وذلك بهدف زيادة حيازتها فيما بعد الاستقلال (تطلع طبقي) وكذلك للمحافظة على مصالحها بالمدينة ، لكن الإقطاعية المحلية المنسجمة في تشكيلها الاجتماعية - تحالفت مع الاستعمار وذلك لتاريخها الطويل وتكتلها المستمر في الطليعة السياسية ضد كل الفئات الاجتماعية الأخرى ، أما الرأسمالية التجارية والصناعية فلم تكن مكانتها عظيمة ن، ولم تتمتع بأي تفوق سياسي .

وإذا كنا بصدد تمييز هذا الصعيد الاجتماعي على أساس جغرافي (ريفي حضري) فإننا نلاحظ بأن الحراك الداخلي يختلف بين المجتمعين : يلتزم المجتمع الريفي بتوفير الشغل لأفراده ويعتبر العمل واجبا اجتماعيا والبطالة خطأ أخلاقي ، في حين تنتفي المسؤولية الاجتماعية في المجتمع الحضري وتحل محلها المسؤولية الاقتصادية تبعا للنظام الاجتماعي الموجود في البيئة الحضرية التي تعطي الصورة الواقعية لمفهوم الترقية الاجتماعية وتحدد من مفعول الأعراف الاجتماعية ، فالعوامل الاجتماعية التي تستقطب الإرادة الذاتي للأفراد في اختيار المهنة والتي ترتبط بالمستوى التعليمي الذي يصل إليه الفرد فكما كانت المهنة المطلوبة ذات اعتبار اجتماعي كلما كان المستوى الثقافي المطلوب مرتفعا يقول بورديو : " إن درجة الحرية في اختيار الشغل تزداد بصورة ذات دلالة كلما تطور مستوى التعليم "

كما يرتبط الاندماج بالعرف الثقافي أيضا ، فمن حصل على شغل يجب أن يعين على تعيين أقاربه في الحصول على شغل آخر في المؤسسة التي يعمل فيها ، وذلك طبقا لوضعيته الاجتماعية وعلاقته بالآخرين.

إن سر الانتقال من مرحلة الثورة إلى الاستقلال كان مرتبطا بآمال كل فئة وطموحاتها في الحصول على ثمرة جهدها ووطنيتها في الثورة التحريرية وعلى هذا الأساس فإن حراك ما تحت البروليتاريا والمزارعين لم يستجب لهذه الطموحات والآمال : " بالنسبة لابناء المزارعين فإن الصعود الاجتماعي نادر ، وهو يفترض القطيعة مع الوسط الاجتماعي العائلي بواسطة الهجرة نحو المدن ونحو فرنسا فالبؤس يفرض نفسه على ما تحت البروليتاريا كضرورة عامة لا تجعلهم يفكرون في أي مخرج

ويقول عبد العزيز رأسمال لا أتفق مع بورديو الذي يعتبر ان هذه الفئة ما تحت البروليتاريا لا تستطيع ربط التحسين في شروطها مع التحول الجذري للنظام ، لكن أقول أنها هي التي قاومت الاستعمار وهي التي مرت عليها ظروف أدت بها إلى الهجرة ، بذلك فمعاناتها اليومية تجعلها على العكس من ذلك ترى بأن رقيها لا يتأتى إلا من خلال القضاء على النظام الاستعماري برمته ، أما فئة أبناء الحرفيين والتجار ، فرغم أن آمالها في الترقية تنقلص إلا أن الإرث المهني كبير إن هؤلاء التجار الصغار يقدمون مجموعة هامة من المستخدمين ومن هذه الفئة يتشكل مستخدموا الإدارة الجزائرية بعد الاستقلال ، وبعض العمال في المؤسسات الصناعية لذلك فإن التاريخ الشخصي للأفراد وانتقالهم من مهنة لأخرى آليات الحراك الجيلي هي التي شكلت البنية الاجتماعية الانتقالية بعد الاستقلال وهنا لا أختلف مع بورديو الذي يصل أخيرا إلى ان الحظوظ في الصعود الاجتماعي هي معطيات ملموسة للتجربة الفردية¹

خامسا : مرحلة ما بعد الاستقلال : إذا كانت الظروف التاريخية ومقتضيات الحرب قد بررت انفراد حزب جبهة التحرير لقيادة الثورة على أساس أن الوحدة الوطنية هي القاعدة الأساسية للثورة فإن الجبهة قد نجحت في سحب هذا الواقع على مرحلة ما بعد

¹ عد العزيز رأسمال، المرجع السابق نفسه،، ص 138

الثورة وهذه المرة على قاعدة أن الحزب الواحد ضرورة من اجل تعزيز الوحدة الوطنية وتعبئة الموارد من اجل التنمية وتحييد المواقف المناهضة للاشتراكية، بحيث أن تعدد الأحزاب لا يخدم إلا البرجوازية ومجموعات الضغط الأجنبية.

ويمثل الحزب الدور الطلائعي الذي يتم من خلاله ممارسة الهيمنة والتوجيه ، باعتباره القائد والمنظم للأمة في اتجاه تحقيق بناء ديمقراطية حقيقية ورفاه اقتصادي وعدالة اجتماعية وهو بذلك يتواجد في كل دوايب الدولة ومتغلغل في كل مناحي المجتمع وهذا الانتشار يمكن الحزب من مصادر التعبئة و التأيير السياسي والأيدولوجي لمختلف شرائح المجتمع وبالتالي يتحكم في كل قنوات الترقية السياسية بل ويمنح الأدوار والمراكز ويحدد شروط شغل المناصب العليا في سائر مؤسسات الدولة متخذا من الولاء الأيدولوجي كمحدد أساسي ووحيد لتقييم أداء الفرد في المجتمع¹.

وبهذا يمكن ان نقول ان حركة التحرير الوطنية هي التي سمحت توضيح السيرورات والدوافع التي رافقت الحراك الاجتماعي منذ الاستقلال وإنها تسمح أيضا بتفسير لسيكولوجية الجزائري وهو يغادر الليل الاستعماري الطويل ، كما أنها تسمح أيضا بتفسير عملية إعادة بناء جزء مهم من المجتمع وموقف القضايا الوطنية التي تظهر منذ الاستقلال كما تسمح حركة التحرير الوطني بفهم احسن القرارات الوطنية المتعلقة بالتسيير من اجل التحكم في الاقتصاد من جهة ، وفهم تدوير القطاعات الاقتصادية وديمقراطية التعليم من جهة أخرى ،ففي المدن العائلات كثيرة العدد قد انقسمت من اجل احتلال مساكن الأرجل السوداء الذين غادروا البلاد والعائلات التي استقرت تبعثها عائلات أخرى من داخل البلاد ، والعائلات المنزلة قد حاولت ونجحت في الإقامة داخل المدينة دون أية مساعدة أو علاقة .

وهذا يعني انه كان هناك إعادة توزيع كامل للأدوار والوظائف الاجتماعية والعائلية ، أما في الريف فإن عددا كبيرا من الأشخاص المتنقلين لم يرجعوا إلى أماكنهم الأصلية وأن الأغلبية منهم قد فضلوا الذهاب نحو القرى وأماكن تكتل السكان غير أن السكان الريفيين

¹ محمد بوضياف، الثقافة السياسية ، المرجع السابق نفسه، 118 .

كانوا حقا يعيشون في بؤس وفقر شديدين ، وكان لابد من الانتظار لما يعادل مجموع سن فئة حتى يصبح مواليد 1962 في سن المدرسة أي سنة 1967 لكي تهدأ الأعصاب قليلا ، وفي هذه المرحلة أي في سنة 1967/ 1968 انطلقت العمليات الأساسية للتنمية من خلال ما نسميه عبارة الثلاثية الثورية ونجد ان البنية الاقتصادية للمجتمع قد منحت بعدا جديدا ، او وضعية جديدة من منظور التنمية وأن أطر الحركة الاقتصادية قد تضاعفت بسرعة وحول هذه الحركة الاقتصادية برزت أنواع جديدة من التصرفات الاجتماعية تهدف الى نيل أدوار ومراكز جديدة ضمن مجتمع السبعينات ، ومن خلال العشرية الأولى من الاستقلال ظهرت الى السطح مشاكل المجتمع وهي الأمية البطالة تدهور الزراعة وكانت الحلول هي التعليم سياسة التشغيل وفكرة الإصلاح الزراعي ، والتخطيط ظهر كضرورة لتنظيم وهيكله الاقتصاد لا سيما القطاع العام الذي اصبح بالنسبة للدولة وسيلة للتنمية الاجتماعية ولهذا ظهرت المشاريع الصناعية منذ 1964 ولقد حاولت الدولة هيكله القطاع الاقتصادي ابتداء من 1964 وذلك من خلال إنشاء الشركات الوطنية الأولى وعلى أساس هذه القاعدة الأصلية توسع قطاع الدولة أكثر فأكثر فالعمل أصبح منظما بطريقة إرادية بينما كان الاقتصاد في حاجة ماسة للإطارات و المسؤولين السياسيين بالأمس تحولوا إلى مسؤولي مؤسسات او إدارات ¹.

وفي سنة 1972 بدأت حركة جديدة لهيكله المجتمع وفي هذه السنة انطلقت الثورة الزراعية و التسيير الاشتراكي للمؤسسات ، انتهاء المخطط الرباعي الأول وبدأت الخطوط العريضة للمخطط الرباعي الثاني ، وكل هذه القرارات والعمليات كان منبعاها الحركة الاجتماعية السياسية للاستقلال وكذلك حركة التحرير الوطني السابقة له ، ان هذه الحقيقة تفرض حقائق أخرى على مستوى البناء الاجتماعي فنظام الأجور سيحدد شريحة اجتماعية من العمال تتوسع أكثر فأكثر ، وجماهير العمال كانت ما تزال في معظمها أمية وقليلة الكفاءة خلال المخططين الرباعيين ، إرادية العمل ظلت كبيرة وظهرت المرأة في الصناعة خصوصا في أعمال السكرتارية والتمريض والمخبر و أعمال التنظيف ، إن هذه

1 بوتفوشست مصطفى مراحل تكون البنية الاجتماعية في الجزائر ، أعمال الملتقى الوطني لعلم الاجتماع ، التغييرات الاجتماعية في الجزائر منذ الاستقلال ، الجزائر 28 29 30 افريل 1986 ديوان المطبوعات الجامعية ، ص1

التحركات البنوية الاجتماعية - الاقتصادية قد كانت مرفقة بتغيير على المستوى الفردي والعائلي وكذلك على مستوى الجماعات، وعلى المستوى السيكو اجتماعي فإن إشكال التضامن في الفترة الثورية كانت مرتبطة بمراقبة اجتماعية عن طريق اكرهات واجبارات علنية¹

إن أشكال هذا التضامن الذي ظهر أثناء المعركة ستتفجر تاركة مكانها لفكرة الاستقلال الفردي التي تقوم على سلوك عدواني مهم وأثناء فترة ما بعد الاستقلال فإن تصرفات الأفراد قد أصبحت تحررية مع اتجاه للعدوانية واللفظية و الإشارية، ونستطيع القول بان حركة الهيكلية الاجتماعية في أيام الثمانينات قد بدأت حوالي سنة 1972 فالشباب الجزائري الذي ولد في 1954 والذي قد بلغ سن 16 سيجد قواعد اجتماعية محددة وهذه القواعد التي بدأت تظهر ستفرض عليه شروطا ضرورية إذا كانت أطر الاندماج الاجتماعي في سنة 1962 ضعيفة جدا فإنها في سنة 1972 أصبحت تظهر على أنها أكثر بروزا فالمعطيات التربوية قد توسعت والعمليات الاقتصادية قد أخذت أهمية أساسية كما أن المعطيات الاجتماعية أيضا قد تنوعت و أخذت اتجاهات كثيرة، وأمام وضعية أزمة السكن التي عرفت في سنة 1972 فإن ميكانيزمات التضامن العائلي أصبحت تلعب دورا بين أعضاء المجموعات ثم الشغل الذي وفر في إطار التخطيط الاقتصادي لم يسمح للتشغيل المأجور أن يوازي ميزانية العائلة

ولهذا فإن العائلات التي تمكنت من ازاحت هذا العائق المتمثل في موازنة الميزانية قد تم لها ذلك بفضل عمل عدد كبير من أفرادها وبالتالي الحصول على مداخيل كبيرة وفي العموم قد طرح هذا على المجتمع الجزائري في مجموعه علاقة جديدة هي (العائلة العمل الاستهلاك) التي هي في الأصل تختلف تماما عن طبيعة تلك العلاقة في المجتمع الجزائري في عام 1962.²

¹ ، بوتفوشت مصطفى، المرجع السابق نفسه ،ص2.

² . المرجع السابق نفسه ص3

ونتيجة لتداخل عديد من المؤشرات فإن التشكيل الاجتماعي وسير المجتمع سيتخذان شكلا ومضمونا جديدين، وابتداء من سنة 1972 يظهر وكأن جسد المجتمع الجزائري قد أخذ يتغير وسلخ من بشرته ويظهر كذلك وكأن المجتمع التاريخي تخلص عن درعه القديم ومنح نفسه درعا جديدا ومقاييس التطور الإيجابية منها والسلبية لمجتمع المستقبل هي التي سهلت هذا الانسلاخ وهذا لا ينبغي للتناقضات المتأصلة ضمن التطور والتي تعتبر أساسا للديناميكية أي محرك هذا التطور خاصة من خلال نتائج التعليم والتشغيل والزحف الريفي والتدفق الحضري ونظام الأجور واقتصاد السوق، كما أن هذا الانسلاخ قد ضاعف من سرعة أهمية النمو الديمغرافي وفئة الشباب هذه الفئة التي هي وليدة سنة 1972 والتي بلغت سن البلوغ والمراهقة ستمنح لنفسها مقاييس جديدة للعمل والنشاط الاجتماعي¹.

ومنذ ذلك الحين فصاعدا فإن البناء الاجتماعي سيتحدد ويتضح ويتسرع وأن حركة الهيكلية التي بدأت في 1972 ستتطور كلية في 1980 ففي هذه السنة فإن هذا الشباب الجزائري المولود في 1962 يمثل الفوج الأول الجيل ما بعد الاستقلال وفي هذه السنة نسجل بداية المخطط الخماسي، بداية إعادة الهيكلة للاقتصاد والمؤسسات وبداية تطبيق القانون العام للعامل وللأول مرة منذ الاستقلال منحت الأولوية للقطاع الاجتماعي وجملة الأوضاع والوقائع تشير بما فيه الكفاية بأن روابط اجتماعية عاجلة وأسس سوسيولوجية قوية وحاجات اجتماعية هامة قد التفت وتجمعت لكي تسمح لهذه الميادين من النشاط الاقتصادي والسياسي بالظهور²، ونلاحظ أنه في كل مرحلة تساهم الفئات الاجتماعية المختلفة في المؤشر المسيطر للمرحلة وعندما لا تساهم فإنها تعتني وتشارك مباشرة بواسطة الميزة للمرحلة وفي بين 1954 و1962 كل الشرائح والفئات الاجتماعية قد اعتنت بالحرب التحريرية وما بين 1962 و1970 كل الفئات الاجتماعية اعتنت بتسيير الحرية حتى ولو كان مستوى المصالح يختلف من فئة لأخرى وما بين 1970 و1976

¹ بوتفوشة مصطفى، المرجع السابق نفسه، ص4.

² المرجع السابق نفسه، ص4.

فإن الفئات الاجتماعية الأكثر اعتناء في اجتماعية الاقتصاد هم العمال الفلاحين حتى ولو كانت فئات أخرى مثل التجار الوسطاء والمقاولين قد استفادوا من اجتماعية الاقتصاد وما بين 1976 و1980 وأمام التعقيد المتزايد للسير الاجتماعي فإن النخبة والفئات المتواجدة في السلطة خاصة هم الأكثر اهتماما بإجراء الانضباط الاجتماعي وبتحديد مفهوم الدولة اما فيما بين 1980 و1985 فقد أصبحت أشكال التوازن واجتماعية المراحل السابقة موضوع تلائم بين الدولة من جهة والمؤسسات ومختلف الفئات الاجتماعية من جهة أخرى¹. واستمرت الأوضاع على هذا النحو الى غاية أحداث أكتوبر 1988 التي مثلت مرحلة انهارت فيها شرعية النظام السياسي الجزائري فقد طبعت بحركة اجتماعية مميزة ذلك ان مؤسسة الرئاسة و بحكم نزعتها الليبرالية لم تبق سياسة القبضة الحديدية التي مورست في الفترة الأولى بل خففت قليلا من سيطرتها على حركة المجتمع فازدهرت كثيرا من قوى المعارضة خاصة منها الإسلامية والبربرية، يضاف الى ذلك تحسن مستوى التعليم و إدراك كثير من شرائح الشعب حجم الرهانات والتحديات التي يواجهها المجتمع الجزائري لكن الخوف من القمع والممارسات البوليسية كانت تحول دون التعبير عنها والمطالبة بالحلول المناسبة لها إلى أن بلغ الاحتقان الشعبي مداه بسبب الفشل في السياسات التنموية وسوء توزيع الثروة داخل المجتمع وذكاء صراع الأجنحة في أعلى هرم السلطة مما مهد الى أحداث أكتوبر 1988 ودخول النظام في أزمة متعددة الأبعاد² ونلاحظ خلال هذه المرحلة أن المستوى العالي من الحراك داخل القوة العاملة يشكل إحدى الخصائص الهامة لطبقة عاملة في إطار التكوين أثناء فترة التصنيع السريع، ومن الملاحظ أن مستوى الحراك داخل القطاعات مرتفع نسبيا كما تبين المعطيات التالية

¹ بوتفوشت مصطفى المرجع السابق نفسه، ص ص5/6.

² محمد بوضياف الثقافة السياسية، المرجع السابق نفسه، ص119

جدول (2) يبين الحراك داخل القطاعات (1986)

القطاع	نسبة الحراك
الفلاحة	55,1
الصناعة	59,7
البناء والأشغال	54,7
النقل والاتصالات	50,9
التجارة	68,8
الخدمات	61,9
الإدارة	42,8

Source : ons enquete main d œuvre et demographie. 1982

تثير هذه المعطيات الشك في الأفكار السائدة التي مفادها ان الصناعة تستقطب اليد العاملة الريفية الفلاحية ويمكن تفسير ذلك اعتمادا على تضافر عدة عوامل منها التوسع بوتيرة أسرع في قطاعي البناء والإدارة وضعف المستوى المطلوب خاصة في البناء مقارنة بالصناعة أضف إلى ذلك التلاؤم بين التجربة السابقة لهذه اليد العاملة الريفية ومميزات قطاع البناء .

أما فيما يخص الحراك عند عمال الصناعة انطلاقا من تغيير فرع النشاط ومكان العمل ففي سنة 1982 بلغ عدد العمال الذين شملهم الحراك في هذين القطاعين 471509 أي ما يعادل 41,7 بالمائة من مجموع اليد العاملة المعنية بالحراك ومن بينهم 35,1 بالمائة من عمال الصناعة الذين غيروا فرع النشاط لقد توجهوا إلى فروع عديدة منها الخدمات 26,7 الفلاحة والصيد البحري 35,9 الإدارة 15,3 التجارة 14,3 وتبرز لدينا نماذج ذات دلالة عندما نأخذ في الحسبان مكان العمل إذ بينما يظهر ميل واضح لدى عمال المدن للاتجاه نحو الخدمات والإدارة والتجارة فإن عمال الريف يتوجهون نحو الفلاحة والنشاطات المرتبطة بها¹

¹ العياشي عنصر ، نحو علم اجتماع نقدي (دراسة نظرية وتطبيقية) ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر ، ط1، 1999 ، ص 117 118

سادسا: مرحلة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة مهمة الرئيس بوتفليقة لم تكن سهلة، فقد ورث تركة ثقيلة متعلقة بتدويل الأزمة في الجزائر، وهو لم يسر على منوال سابقه - اليامين زروال - وفقاً لتصريحاته؛ إنما اعتمد في برنامجه السياسي على جبهتين:

- الجبهة الداخلية؛ من ناحية إعادة تنظيم المجتمع الجزائري وعلاقاته، والكشف عن أمراضه وعلاجها، وهيكلته سياسياً، وإعادة ثقة المواطن في الدولة وفي مؤسساتها، ومد الجسور المنقطعة، وجعل قوى الشعب الحية عنصراً قوياً في المعادلة الجزائرية المعقدة وليس كبش فداء فقط يُدبح في المجازر، أو ورقة انتخابية صرفة تُستغل في حينها! وإنما مشارك في صنع القرار السياسي وتقرير مصيره بنفسه.

- الجبهة الخارجية؛ من خلال استعادة دور الجزائر الريادي على الصعيد الدولي، ونقلها من مرحلة رد الفعل السلبي إلى مرحلة الفعل الإيجابي، وهو المسعى الذي لقي تأييداً دولياً منقطع النظير، وخاصة مساعيه لحل الأزمة الأمنية أولاً، والتقليل من الأزمة الاقتصادية ثانياً.

هكذا تبدو ملامح الجزائر من خلال رئاسة عبد العزيز بوتفليقة في عهده الرئاسية الأولى واضحة المعالم؛ من حيث التعامل مع الملف الأمني عبر ترقية الوثام المدني إلى مصالحة وطنية، والحوار مع العروش (البربر) عبر فتح قنوات الاتصال والاعتراف باللغة الأمازيغية لغة وطنية، وعودة رؤوس الأموال الأجنبية للاستثمار في القطاعات الاقتصادية المشلولة، ومحاربة جماعات الفساد عبر ورش إصلاح الإدارة وأجهزة الدولة والقضاء، وتوظيف التأييد الشعبي في تبني مواقف الرئيس من الملفات الكبرى التي تثقل كاهل البلاد والعباد، ومقاومة جماعات القوى الضاغطة، بل أكثر من هذا؛ فإن كل المؤشرات توحى باقتراب انتهاء ثقافة العنف والحقد التي سادت بين الجزائريين لسنوات طويلة بفعل التيار الاستتصالي المهيمن بشكل كبير على الساحة الوطنية إعلامياً وسياسياً، وإن كان لا يحظى بأي شعبية تذكر.

□ من المستفيد المباشر من الصراع؟:

ما لم يحسب له السياسيون حساباً في الجزائر؛ أن وضعاً كهذا الذي يعيشه الشعب وهو على أبواب انتخابات رئاسية مصيرية؛ من شأنه أن يساعد أصحاب المصالح المشبوهة التي تعمل على إثارة المشكلات والتأثير في مجريات الأحداث، وهي العناصر التي فقدت مكانتها في الساحة الوطنية بعدما لفظها الشعب الجزائري في أكثر من محطة انتخابية وسياسية، والتي تنتمي قلباً وروحاً إلى ما يُسمّى بالتيار الجمهوري العلماني الغريب عن مقومات الشعب الجزائري الأصيلة، وبدأت تستفيد من الوضع الجديد.. ومما يجري تداوله إعلامياً - في هذه الأيام - القول بأن الأمين العام لجبهة التحرير الوطني علي بن فليس يحاول أن يستفيد من دعم وأصوات أنصار هذا التيار المتنفذ والمنتشر في دواليب السلطة، والمتحكم في وسائل الإعلام الخاصة، وتُرجع الأوساط المروّجة لهذه الفرضية ذلك إلى كون المعارضين لترشيح الرئيس بوتفليقة من جناح بن فليس اصطفوا مع «الاستئصاليين»، وقادوا الحملة الإعلامية ضد الرئيس والمحيطين به؛ بالرغم من اعتراض جزء كبير من المناضلين «الشرفاء» والمتعاطفين مع الحزب على ذلك. واتهم علي بن فليس الرئيس عبد العزيز بوتفليقة بالوقوف وراء مؤامرة خطيرة تُحاك ضد استقرار البلاد؛ معتبراً أنها أكثر خطراً من تلك التي تستهدف حزبه في المدة الأخيرة، وهي التهمة التي حاول التيار الاستئصالي تسويقها في وسائل إعلامه.

2) الاسباب المساعدة على الحراك الاجتماعي في الجزائر

أ) التعليم: تخصص الدولة الجزائرية ما يقارب من 25 بالمائة من الميزانية العامة للتعليم وسوف تتأكد لدينا هذه المعلومة إذا علمنا ان التعليم الابتدائي وحده قد تطور منذ 1962 من 746937 الى 2018997 تلميذا سنة 1971 واذا انتقنا سريعا إلى السنة الدراسية 83 84 فسوف نلاحظ ان عدد التلاميذ الذين التحقوا بالمدرسة هذه السنة وحدها 560000 قارن هذا بمجموع التلاميذ سنة 1962 بحيث عدد الأطفال الذين يؤمّنون المدارس 4435000 تلميذ يضمهم 62627 قسما ويقوم بتعليمهم 156000 معلما مستخدمين 27 مليون نسخة كتاب التي توزعها الدولة مجانا على التلاميذ الجزائريين¹

ب) الخدمة الوطنية: يرى السوسيولوجيون ان الخدمة العسكرية تعتبر من أهم عوامل التغير الاجتماعي نظرا لأنها تتيح للمطالب بها حياة مختلفة عما اعتاده ومن ثم تتيح له فرصة الاحتكاك بنماذج بشرية لم يألف بها في وسطه العائلي و بالتالي لا بد وانه سوف يدخل في علاقات اجتماعية من نوع آخر مع هذه النماذج يأخذ منها سلوكيات معينة ويؤثر فيع بدوره وبشكل آخر فهي عامل أساسي في تذويب الفوارق التي خلفها الاستعمار كما تساعد على بلورة علاقات إنسانية واجتماعية من نوع جديد يتكامل فيها الأفراد من كل الطبقات ومن كل المناطق و تضي عليها ظاهرة المواطنة ولا شك ان هذا النوع من الحياة ولمدة سنة ونصف سوف ينمي عند الشباب علاقات نفسية واجتماعية مطورة من تلك العلاقات والصدقات التي تبلورت بينه وبين شباب آخرين ومن مناطق أخرى وهذا يؤدي إلى ما يسميه علماء الاجتماع بالتكامل الاجتماعي وذلك بسبب المشاركة الإيجابية للشباب في هذا المجتمع الجديد ولقد بلورت الخدمة بالمسؤولية في الدفاع عن الوطن في نفس الشباب والوعي السياسي بأهمية

¹ محمد السويدي المرجع السابق نفسه، ص 50 51

دوره في مجتمعه من حيث القيام بأعباء مجتمعه تستهدف الصالح العام وليست مهنية او شخص بذاته.¹

وتساعد الخدمة على تعميق الجانب العملي التطبيقي للإطارات الشابة التي اجتازت مراحل التكوين العالي و إثراء تجربتها سواء كان ذلك في ميدان العلوم الاجتماعية أم في ميدان الطب والهندسة والتكنولوجية ذلك من خلال احتكاكها بالميدان المتمثل في مختلف الشرائح الاجتماعية للمجتمع الجزائري ومن ثم تعميق التكوين النظري لهذه الإطارات في ضوء الواقع الجزائري المعاش ، كما تتيح للشباب الذي يتمتع بمسؤولية بمستوى معين من التعليم والتكوين اكتساب مهارة وتعلم مهنة من خلال خدمته ليخرج بعدها إلى الحياة مسلحا بمهنة تسهل عليه الاندماج في الحياة الاجتماعية ، كما أتاحت لعدد من المؤسسات عدد من الإطارات ذات تكوين عالي كما فتحت أمام المجند فرصة العمل في المؤسسة المعنية في المستقبل.²

(ج) النزوح الريفي : ان تحول بناء الأسرة الجزائرية من النظام الممتد إلى النظام النووي لم يكن ليبرز بشكل واضح وسريع إلا بعد ان نزلت الأسرة الى الوسط الحضري المختلف عن الوسط الريفي او من نموذج اجتماعي واقتصادي استهلاكي يقوم بالدرجة الأولى على العلاقات القرابة ويعتمد على الإنتاج الزراعي والحيواني إلى نمط اجتماعي فردي يقوم على الاقتصاد الصناعي والتجاري ويحكمه العمل المأجور في الزمان والمكان .

كما تسمح المدينة للعائلة بالتحرك في السلم الاجتماعي والاقتصادي من اسفل إلى أعلى او العكس كما قد تدفع إلى التحرك الأفقي (الجغرافي) فيغير من مكان أقامته تحت ظروف فرص العمل بعكس الحال في الريف الذي يجعله مرتبطا بقطعة ارض وبمجال اجتماعي معين³

¹المرجع السابق نفسه،،ص 59.

²محمد السويدي المرجع السابق نفسه،،ص 60 .

³المرجع السابق نفسه،ص 90

(د) الهجرة غير الشرعية: تشترك جميع عينات المهاجرين غير الشرعيين أو ما يطلق عليهم تسمية "الحرافة" القادمين في معظمهم إلى الجزائر من بلدان الساحل الإفريقي: مالي، السنغال، غينيا و ليبيريا، في اقتسام مرارة العيش تحت وطأة اللأمن التي تخيم على بلدانهم الأصلية و عنصرية سكان البلدان المستقبلة. ينقل قيس جيلالي في فيلمه الوثائقي "الفخ" شهادات بعض الشباب المهاجرين غير الشرعيين، ويتابع انتقالهم من مناطق تيزاويتين وتمنراست أقصى الجنوب إلى الجزائر: بوابة أوروبا. شهادات كل من يوسوفو، موسى، فابريس وآخرين.. كلهم تحدوا مشاق السفر برا هروبا من الواقع الاجتماعي والسياسي وانسداد الأفق ببلدانهم. ينقسم فيلم "الفخ" إلى ثلاثة فصول: الشهادات التي عبرت عن الأوضاع جد المتأزمة لهذه الفئة بالجزائر ومشاكل اندماجهم في المجتمع، ثم أسباب الهجرة، أين قام المخرج بالتنقل خصوصا إلى مالي إحدى أهم قواعد المهاجرين غير الشرعيين، حيث نقل بعض مظاهر الحياة البائسة (الفقر، البطالة و اللإستقرار السياسي) ثم فصلا أخيرا عنونه بـ "المأزق": أين يجد هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين أنفسهم أمام حقيقة مرة، غير قادرين على مواصلة الطريق إلى أوروبا وغير قادرين على العودة إلى بلدانهم الأصلية. يصور الفيلم وضعية المهاجرين غير الشرعيين في صورة أشد بؤسا ربما حتى من لاجئ الحرب. يعيشون، في أفضل الأحوال، في بيوت قصديرية، ويبيت غالبيتهم في الشارع حتى في فصل الشتاء، أين تتراوح درجات الحرارة ما بين 6 و 8 درجات. يشتكي غالبية المهاجرين غير الشرعيين خصوصا من صعوبة تقبلهم في المجتمع الجزائري، مقارنة بمجتمعات مغربية أخرى. الرفض الذي يواجه أبناءهم في مواصلة الدراسة التي تستوجب تقديم شهادة الجنسية للأبوين و الاحتقار الكبير الذي يواجهونه من طرف المجتمع، بثتمه ووصفهم قرده على حد تعبير أحد المهاجرين غير الشرعيين. عن مراحل الإعداد لهذا الفيلم الوثائقي أكد المخرج "قيس جيلالي" بأنه واجه خصوصا إشكالية غياب رخصة العمل عبر مختلف الدول التي زارها: مالي و المغرب¹.

¹ فريد صادق زوزو، الأسرة الجزائرية بين التغريب والتقليد، <http://www.lahaonline.com>، 2008/05/17.

كما لم يخف في تصريح لـ "الجزائر نيوز" عن اندهاشه لفتح هؤلاء الشباب المهاجرين غير الشرعيين لتقديم شهاداتهم. حيث يؤكد بأنه التقى بعض الشباب المثقف، بعض الفنانين الذين اضطرتهم الظروف السياسية الصعبة إلى هجرة بلدانهم سرا. حيث يضيف بأنه التمس تلهفا لدى هؤلاء للتعبير عن معاناتهم، عن سوء معاملتهم من طرف البلدان المستقبلية. في سياق متصل، يذكر بأن العرض الشرفي لفيلم "الفخ" تزامن مع صدور كتاب "ظلام الوجه" عن منشورات البرزخ بتوطئة الروائي المعروف باسمينة خضرة الذي تضمن ألبوم صور وشهادات خاصة بالمهاجرين غير الشرعيين، التقطها خلال مراحل الإعداد للفيلم عام 2007.. صور بالأبيض والأسود وشهادات تنقل مراحل رحلة ومأساة كل واحد من عمق الصحراء إلى حدود البحر الأبيض المتوسط¹

ه) التسلط الأبوي ومظاهره: يعتقد كثير من الآباء أن كل ما يحتاج إليه الطفل هو الشدة والحزم، وتدريبه على الطاعة والنظام، وإحاق العقوبة به بمجرد فشله في تنفيذ ما يوجه إليه من أوامر. ومن مبررات ظهور من هذا السلوك لدى الآباء أن:

-الأب لا يجد التقدير في حياته الخارجية، ويحاول أن يحصل على الاحترام والتقدير الذي يستحقه الأب من جانب أبنائه.- أو من أجل المحافظة على قيم لا تتسجم مع قيم المجتمع النازحين إليه، مثل الانتقال من العيش في البيئات الريفية إلى البيئات الحضرية.- وقد يكون له أسباب تاريخية أن دور الأب التسلطي هو الدور الذي كان سائدا في الماضي، والذي يسوده التمسك بفكرة أن واجب الطاعة مفروض على الأطفال²

¹ فريد صادق زوزو، المرجع السابق نفسه،

² المرجع السابق نفسه.

3 (الأسرة الجزائرية والحراك الاجتماعي: بين تقليد الغرب تقليدا أعمى، والاستفادة من تجاربه وحضارته المعاصرة تنبيه الأسرة الجزائرية.

فكثير من الأسر لا تستطيع التمييز بين مكتسبات الحضارة الغربية وسلبياتها؛ وتقليد الغرب ذلك التقليد الأعمى في أنماط حياته، وسلوكيات الغربيين اليومية، إذ أن فيه الكثير من الخلل؛ لأن منظوماتنا الأخلاقية تختلف جذريا وتتمايز عن منظومتهم تمايزا واضحا لكل مسلم يعتقد بالدين الإسلامي.

ولا ننكر هنا أنه يجب أن نستفيد كل الاستفادة من مكتسبات الحضارة الغربية التي لا تنافي قيمنا وأخلاقنا، لا سيما أخلاق الحياء والتواضع، وأخلاق الرضا والاحترام، أخلاق الآداب العامة، وأخلاق احترام الصغير للكبير، وتوقير الكبير للصغير، أخلاق الحب في الله، وغيرها.

نعم يمكننا الاستفادة من الغرب في طرق البناء والهندسة المعمارية، لكن لا نبني شققا وعمارات تكشف عن حياتنا، وتزيل هذا الخلق في تعاملنا مع الجيران مثلا، وفي الوقت نفسه لا نبني شققا مغلقة مكتومة لا ينفذ إليها الهواء إلا من ثقوب شرفات مكذوبة، فهذا غلو ينافي مقاصد الأبنية في أن الهواء يدخلها وينفذ إليها.

وما يخص موضوعنا في تربية الأبناء فإن كثيرا من التقاليد الغربية الماسخة دخلت عقر دارنا عن طريق التلفاز أو الأسواق الاستهلاكية التي أغرقتنا في الماديات وأبعدتنا عن قيمنا، وعاش الناس في غفلة تائهين عن مقاصد الزواج أساسا، ومقاصد العائلة تبعا في تربية الأبناء، وإعداد الإنسان الصالح الذي يكون خليفة الله في أرضه.

وتعيش الأسرة الجزائرية جهلا وغفلة عن مقاصد الأسرة في الإسلام، لا تعيش إلا لتبحث عن ضرورات المعيشة في المأكل والمشرب والملبس، وينعكس ذلك سلبا على الأبناء الذين يقلدون آباءهم أو ينتهجون لأنفسهم نهجا أصدقائهم في البحث عن جديد السوق من الملابس والأشرطة السمعية، وآخر أخبار التلفاز، وهم في غفلة عن صلاتهم

اليومية، ناهيك عن التخلق بأخلاق الإسلام من صدق وتواضع، بل إن النفاق والكذب والتكبر أصبح من سمات الكثير من أطفالنا خاصة بين أبناء الطبقة العليا وينشأ الأبناء لا يفقهون شيئا عن الله تبارك وتعالى، ولا يعرفون معنى أن نصلي 5 مرات في اليوم، لا يهتم الفتيات والفتيان إلا جديد الموضة وآخر فيديو كليب، وآخر أخبار السينما، والتحضيرات النهائية لمباريات كأس العالم بألمانيا. فنعيش الأنموذج المثالي من خلال مسلسلات وأفلام تبثها الفضائيات، ولا نلبس إلا جديد الموضة بألوانه وزخرفته، وننام آخر النهار ونحن لم نحاسب أولادنا عن صلاتهم ذاك اليوم، وماذا فعل مع أقرانه في الشارع، وهل قرأ شيئا من القرآن؟؟؟والحق إن الغرب لا يسير دون خطة يسترشد بها طريق استعمار جديد للعالم وهو في عقر داره، وما العولمة إلا مثال حي عن ذلك، "العولمة تعني الترشيد داخل إطارها المادي الغربي لكل المجتمعات، بحيث يتحول العالم في نهاية الأمر إلى سوق واحد متجانس يخضع لقوانين العرض والطلب المادية" إذ تحاول الكثير من الأسر الجزائرية أن تقلد الغربيين في أسلوب معيشتهم فإنها لا تقلدهم إلا في ثقافة العري وعدم الاحتشام من الغرباء، ومن باب أولى الأقربون، كذا ثقافة التفاهة التي تكرر حياة مادية، يعيش الناس من خلالها في غفلة عن مقصد وجودهم على هذه الأرض، وعن الإجابة عن سؤال: لماذا خلقنا؟ وفي الوقت نفسه تتعافل عن القيم الحقيقية للغرب والتي بها علا وسما، فمن أساسيات التربية عندهم أن الطفل يشب متمسكا بلغته مهما كانت، لغة أصيلة لا ركافة فيها، إضافة إلى اعتماد الترغيب والترهيب في مسألة العقاب، وخاصة الجسدي منه، كما لا يمكن تجاهل ما للترفيه عن النفس من مكانة حيوية، سواء في الألعاب الرياضية، أو الخروج مع الأبناء، وغيرها من أسباب الترفيه كل حسب إمكانياته؛ وهي التي انعدمت في أساليب التربية التي تعتمد على ألعاب مستوحاة من محيط الشارع، والتي تورث جيلا عبر جيل.

غير أن الأسر المنفتحة على الترغيب لا تستفيد من هذه المجالات!! وهنا السؤال المطروح. هل نحن مجتمع يأخذ مع ما يتفق وشهوته ورغباته الآنية فقط؟ وماذا عن اتجاه الكثير من أبنائنا نحو المخدرات، وثقافة الجنس، أو نقول ثقافة الصديق فقط،

وهو ما أنتج عندنا فكرة الأمهات العازبات، ولنا أن نتصور أبناء هؤلاء الأمهات؟! هذه الثقافة الغربية عن مجتمعنا المسلم، دونما التفكير في الثقافات النوعية التي تعود على الأفراد بالنفع والصلاح حتى ولو استوردت من عند غير المسلمين.

وإننا نجد الكثير من أبناء مجتمعنا لا تكاد تربطهم بدينهم سوى شهادة الميلاد، فثقافتهم الدينية ضعيفة إلى حدّ مخيف، وهو ما يرجع إلى حدّة الاحتكاك الثقافي مع الغرب ماضيا وحاضرا.. إضافة إلى القنوات الفضائية والإنترنت... فتعاطي المخدرات، وقصص القتل المريعة، وأحداث الانتحار، والاعتصاب، وغيرها مما في سجلات المحاكم وتقارير الشرطة، وما تنشره الجرائد على صفحاتها يوميا من أمور غريبة عن المجتمعات العربية التي ما كانت تعرف إلا القتل للنأر أو الشرف¹

¹ فريد صادق زوزو، المرجع السابق نفسه